K. Şeker
Emrah

Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Araştırmaları Merkezi

ابراهيم العاني

الزمان في الفكر الإسلامي

(ابن سينا - الرازي الطبيب - المعري)

دار المنتخب العربي
للدراسات والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1413هـ - 1993م

دار المنتخب العربي
للدراسات والنشر والتوزيع
ص. ب : 113/6311 ـ بيروت ـ لبنان

توزيع

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام
هاتف : 802296- 802407- 802428
ص. ب : 113/6311 ـ بيروت ـ لبنان
تلكس : 20680- 21665 LE M.A.J.D

مقدمة

الصلاة والسلام على رسول الإنسانية سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الأطهار وصحبه الأكرمين الأخيار. . . وبعد. . .

فقد شغل التفكير في الزمان الذهن الإنساني منذ أقدم العصور. وفي تصورات المصريين القدماء وسكان ما بين النهرين شواهد كثيرة تتعلق بمفهوم الزمان، مثل تصوراتهم حول الخلق والموت والخلود وما إلى ذلك.

وربما كانت (ملحمة جلجامش)[1]، وهي من أهم ما وصل إلينا من التراث الأدبي للسومريين والبابليين، خير شاهد على ما نقول. فقد صورت هذه الملحمة البطل الأسطوري (جلجامش) وهو يقوم برحلة عجيبة وشاقة لاكتشاف لغز الحياة والموت، ومعرفة سر الخلود الذي تنعم به الآلهة. فهي إذن محاولة للتخلص من أسر الزمان الفاني، والعيش في نعيم الأبدية مع الآلهة، على الرغم من أن (جلجامش) قد عاد خائباً من رحلته تلك، معلناً عجز الإنسان عن اكتشاف سر الموت، وعجزه عن نيل الخلود.

كما شغل موضوع الزمان أفكار الفلاسفة من يونانيين ومسلمين ومحدثين. فقلما تجد واحداً من هؤلاء لم يتطرق إلى هذه الفكرة بشكل مباشر أو غير مباشر، ربما لأن الإنسان في حقيقته كائن زماني، وأن الزمان جزء من وجوده وأفعاله. قال

(1) ملحمة جلجامش، ترجمة: طه باقر، بغداد، 1975.

تعالى: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾[1]. فكان على الفلاسفة، وهم طلاب حقيقة قبل كل شيء أن يعملوا على التصدي لفكرة الزمان وتحليلها، عسى أن يتوصلوا لمعرفة حقيقة الإنسان والعالم.

ففي الفلسفة اليونانية عالجها أفلاطون في (طيماوس)، وأفرد لها أرسطو جزءاً هاماً من كتاب الطبيعة.

وفي الفلسفة الإسلامية كانت فكرة الزمان محوراً لدراسات الفلاسفة والمتكلمين، وقد ارتبطت عندهم بمشاكل كثيرة وهامة مثل مشكلة الآن ومشكلة القدم والحدوث وغيرها.

أما في الفلسفة الحديثة والمعاصرة فقد قامت على فكرة الزمان فلسفات بأكملها، كالفلسفة النقدية عند (كنت)، والفلسفة الوجودية عند (هيدجر)، والفلسفة الحيوية عند (برجسون). ناهيك عن كونها أحد الأفكار الأساسية في العلم الحديث ابتداء من (نيوتن) وحتى (أنشتاين).

وما دامت فكرة الزمان هي مشكلة معاصرة شغلت حيزاً واسعاً من دراسات الفلاسفه المحدثين والمعاصرين، فإن بحثها واستجلاءها عند الإسلاميين هو إظهار لفكرة حية على صعيد الواقع، وليس مجرد مسح للتراب عن أثر وضع في متحف التاريخ.

وربما كشف لنا هذا الأمر طريقاً جديداً في التعامل مع المضيء من تراثنا والمتجدد باستمرار. تعامل يخرجنا من دائرة الدراسة التاريخية الجامدة إلى نطاق المعايشة الحقيقية لذلك التراث. حيث يصبح بالتالي قفزة نوعية تدفع بنا إلى الأمام وليس تراكماً كميّاً يسدنا إلى الوراء.

ولقد تناولت في دراستي هذه فكرة الزمان من خلال ثلاثة فلاسفة هم: ابن سينا، والرازي الطبيب، وأبو العلاء المعري الذي أثبته هنا فيلسوفاً وضع فلسفته في قالب شعري وخاصة في (اللزوميات).

---

(1) القصص: 73.

وكان الدافع إلى ذلك هو الاهتمام الكبير الذي أولاه هؤلاء الفلاسفة لموضوع الزمان بحيث بدا ظاهراً على كل ما عداه من مواضيع. ولأن كلاً منهم يكاد يشكل تياراً محدداً في نظريته الزمانية، (تيار فيزيائي) يمثله ابن سينا، غلب عليه تحليل الزمان من خلال ربطه بظاهرة الحركة والسكون وجملة الظواهر الطبيعة الأخرى؛ و (تيار ميتافيزيقي) يمثله الرازي الطبيب ويتمثل بالدرجة الأولى في تقسيمه الثنائي للزمان إلى مطلق ونسبي، وتيار يقرب من تصور بعض الوجوديين المحدثين يمثله أبو العلاء، ويربط فيه الزمان بمفاهيم الموت والعدم والمصير.

على أنني لم أقتصر على هؤلاء الفلاسفة في عرضي للمشكلة الزمانية، وإنما كانوا، وحسب، منطلقاً لتغطية المشكلة في الفكر الإسلامي عموماً. فعالجت فكرة الزمان في القرآن والسنة واللغة، وعند المتكلمين من معتزلة وأشاعرة ومن سار على نهج الأشاعرة كالإمام الغزالي، وعند فلاسفة آخرين كالكندي وأبي البركات البغدادي وأبي الوليد ابن رشد، كما كان تناولي لأبي العلاء مناسبة لاستجلاء مفهوم الزمن في الشعر العربي.

وبما أن هؤلاء الفلاسفة قد ضمهم عصر واحد وزمن متقارب هو القرن الرابع الهجري، فقد آثرت أن ألقي نظرة على هذا القرن مركزاً قدر الإمكان على الحالة العقلية والأفكار والتيارات السائدة، ومبتعداً قدر الإمكان عن دائرة السرد التاريخي. ومن هنا فإني لم أتعرض لحياة الفلاسفة مثلاً لأنها لا تضيف جديداً فيما يخص موضوع البحث.

كما أني راعيت التسلسل الموضوعي في عرض القضايا والمشكلات. بحيث خصصت كل فصل لقضية معينة وليس لشخصية معينة، دون أن يمنع ذلك من تناول تلك الشخصية منفردة ولكن ضمن إطار من الوحدة الموضوعية.

ومن هنا كان حرصي على عرض النظرية السينوية قبل نظرية الرازي الطبيب في الزمان متجاوزاً بعض الشيء التسلسل التاريخي، وذلك لأننا نجد عند ابن سينا تغطية شاملة لكافة المشكلات الزمانية التي عالجها الفلاسفة المسلمون، الأمر الذي يجعلنا نمسك بالمفاتيح الفكرية للشخصيات التي سبقته أو جاءت من

بعده، وفي ذلك مدعاة لأن نبتدىء به.

لقد كانت هنالك بعض الصعوبات منها ما يتعلق بالفلاسفة ومؤلفاتهم ومنها ما يتعلق بالموضوع نفسه. فبالنسبة للرازي الطبيب فقدت أكثر كتبه الفلسفية، ولم يتبق منها إلا النزر اليسير مما أورده الخصوم في معرض المحاججة والنقد. فكان علينا أن نرجع إلى ما كتبه الدارسون القدامى وما نسبوه له من أفكار، وبما أنهم - باستثناء البيروني - من خصومه، لم آخذ ما أوردوه عنه على علاته، بل أخضعته لعملية نقد شديدة حتى أتبين مدى صحته، أو أعرضه على ما هو ثابت ومتفق عليه من مذهبه، فإذا ثبت اختلافه أو تعارضه معه أهملته.

أما بالنسبة لأبي العلاء فربما كانت الصعوبة تكمن في قراءة تراثه الأدبي (المنظوم والمنثور) قراءة فلسفية. لأن فلسفته كانت متناثرة في دواوينه، وبخاصة (اللزوميات)، وكذلك في رسائله الأخرى؛ وعملية جمعها لتكوين نسق فلسفي خاص به، تبدو شاقة ومتعبة في كثير من الأحيان. وربما دفعت البعض إلى أن ينفض يديه منه ومن فلسفته. هذا فضلاً عن استعماله لأسلوب الرمز والإلغاز مما يحيط أفكاره بحجاب كثيف:

واصمت فإن الصمت يكفي أهله ... والنطق يظهر كامناً ويقررُ
وليس على الحقائق كل قولي ... ولكن فيه أصناف المجاز
إذا قلتُ المحال رفعت صوتي ... وإن قلت اليقين أطلت همسي[1]

فليس غريباً أن يفتش الباحث فيما وراء السطور، ويحاول أن يفهم ويقرأ (المجاز) لكي يفهم أبا العلاء! ولذة الاكتشاف تذلل الكثير من الصعاب التي يواجهها الإنسان في بحثه الدائب عن الحقيقة. وكنت أؤمن أن موضوع الزمان والمكان عند أبي العلاء، فضلاً عن فلسفته عموماً، هي أرض بكر لم يرتدها الباحثون إلا قليلاً. ولذا بقيت جانباً مجهولاً من جوانب فكرنا الفلسفي، وأحسب أن بحثها وتحقيقها يلقي الضوء على موطن جديد من مواطن الإبداع في الفلسفة الإسلامية، سيما وأن الأصول الثقافية لأبي العلاء هي عربية إسلامية في المقام الأول.

(1) المعري: اللزوميات، جـ 1 (ل 49/ ص 263)، جـ 2 (ل 16/ ص 8)، جـ 2 (ل 60/ص 39).

أما بالنسبة للموضوع فقد أشار غير واحد من الفلاسفة والمفكرين إلى صعوبة موضوع الزمان. فقال (أبو الريحان البيروني) في (تحقيق ما للهند، ص 271): «إنه بحث يدقّ جداً أو يغمض ولولا أنه كذلك لما صار المختلفون فيه في غاية التباعد. حتى قال بعضهم: أن لا زمان أصلاً، وقال بعض: إنه جوهر قائم بذاته»!

وكنت أدرك حين تصديت لبحث هذا الموضوع في تراثنا الإسلامي العظيم مقدار تلك الصعاب التي تحيط به، بسبب دقته وتجريد موضوعاته واختلاف الآراء فيه، فضلاً عن صعوبة تحقيق ماهيته.

ولكن مما هوّن من أمر تلك الصعاب مدى علمي بأن الزمان يكاد يكون هو الحلقة المفقودة في حياتنا العربية والإسلامية المعاصرة. وربما كان ذلك أحد الأسباب العميقة الكامنة وراء تخلفنا الحضاري والتي قلما يلتفت إليها الباحثون فعسى أن يكون هذا البحث خطوة على طريق اكتشاف الزمان الحضاري لهذه الأمة زمان يربط ماضيها بحاضرها ويدفع به نحو المستقبل المشرق إن شاء الله.

وفي الختام أتوجه بوافر الشكر والتقدير للأستاذة الفاضلة الدكتورة/نازلي إسماعيل حسين، رئيسة قسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة عين شمس والتي أغنت البحث بملاحظات قيمة صادرة عن حدس فلسفي إسلامي أصيل، كما أشكر كافة الأساتذة والزملاء الذين أعانوني على إتمام هذا البحث.

وأدعو المولى سبحانه أن يوفقني لتحقيق ما أصبو إليه، فهو حسبي عليه توكلت وإليه أنيب.

إبراهيم العاتي

الفصل الأول

نظرة على العصر

تمهيد

العصر الذي جمع الفلاسفة الذين نتناولهم بالبحث والتحليل هو القرن الرابع الهجري. وقد كان هذا القرن قمة في النضوج العقلي والرقي الحضاري. بحيث يمكننا أن نعتبره بحق العصر الذهبي في الإسلام. ولكنه مع كل ذلك التقدم في النواحي العقلية، قد وصل إلى غاية الضعف في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

فعلى الصعيد السياسي تفككت الامبراطورية الإسلامية، وتمزقت أوصالها إلى دويلات متعددة وكيانات صغيرة؛ وعلى الصعيد الاجتماعي بلغت التناقضات أشدها بين الطبقات المتصارعة فيما بينها، والعروق والأجناس فيما بينها، والملل والطوائف والديانات فيما بينها.

وقد أشار البعض[1] إلى أن خضوع المسلمين في ذلك العصر لهاتين الظاهرتين المتناقضتين (الرقى العقلي والتفكك السياسي والاجتماعي)، أنتج لنا آثاراً فكرية عظيمة.

وهذا صحيح إلى حد كبير، لأن من طبيعة الصراع والتناقض أن يشحذا

---

(1) أنظر: تقديم الدكتور طه حسين لرسائل «إخوان الصفاء»، جـ 1، ص 3، المطبعة العربية بمصر، 1928 م.